الفراهيدي

رئيس مجلس الإدارة

وزير الثّقافة

الأستاذ محمَّد الأحمد

الإشراف العامّ

المدير العامُّ للهيئة العامة السّوريّة للكتاب

د. ثائر زين الدين

رئيس التحرير

مدير منشورات الطفل

د. جمال أبو سمرة

الإخراج

حنان الباني

لوحة الغلاف والرسوم

قحطان الطلاع

الإشراف الطّباعي

أنس الحسن

آذار ٢٠١٧

الفراهيدي

بيــان الصفــدي

الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب - مديريّة منشورات الطّفل
وزارة الثقافـة - دمشق ٢٠١٧م

يعيشُ المرءُ فيْ أملٍ

يردِّدهُ إلى الأبدِ

الفراهيدي

ذاتَ صباح وقف «نور» أمام تلاميذ المدرسة، وقرأ قصيدةً كتبها عن دمشق، وكانت كلماتُها تقول:

دمشقُ قلبُ بلادي

أحبُّها كأنَّها أمّي

كم هي جميلةٌ!

إنَّها حديقةُ وطني

ونهرٌ فيها يسير

إنّهُ بردى

صديقُ قاسيونْ

وغوطتُها الحنونْ

صفّقَ الجميعُ لقصيدة «نور»، وظهرتْ على وجهه علاماتُ البهجة، فهو يحسُّ بالسعادة لأنَّ قصيدتَهُ لاقت الاستحسان، فهو يطمحُ أن يكونَ شاعراً.

❖❖❖

في الصفِّ خاطبت المعلّمةُ «نور» قائلةً:

- أنا فخورةٌ بك يا «نور»... وأتمنّى أن أراك شاعراً كبيراً في بلدنا؛ إنّكَ تتقدّم في محاولاتك الشِّعريَّة يوماً بعدَ يوم.

- نور: لكنَّني أريدُ مساعدتكِ يا معلّمتي.

- المعلّمة: أنا جاهزة دائماً ...، تفضّل ما الذي تريده؟

تردَّد «نور» قليلاً، أخفض بصره قليلاً، ثمَّ نظر إلى المعلّمة باستحياء قائلاً:

- أريد أن أتعلَّم الوزن، سمعت أن للشِّعر وزناً، وأنّ له بحوراً ...

هنا سمع «نور» صوتَ أحدهم هامساً:

- وأنهاراً أيضاً ...

ابتسم «نور» وعددٌ من التَّلاميذ، فقالت المعلّمة:

- فعلاً ...، للشِّعر العربي أوزانٌ، تُسمَّى بحورَ

الشِّعر...، لكنَّ الوقت مبكر قليلاً على ذلك بالنسبة إليكم.

جلس «نور» في مقعده، ولم يقتنع بالإجابة، لأنّه كان متحمِّساً ليتعلَّمَ أوزانَ الشِّعر.

عادت المعلّمة، فأضافت:

- مع هذا...، سأحدّثكم قليلاً عن ذلك، لكن سأسألكم، هل سمعَ أحدكم بـ «الفراهيدي»؟

صاح الجميع:

- هذا اسمُ مدرسةٍ في المدينة.

- شاهدتُ الاسمَ على شاشة التّلفاز مرَّة.

- إنَّه اسم معهد في حيّنا.

تبسّمت المعلّمة، وقالت:

- ما قلتموهُ صحيحٌ بالتأكيد، لكنَّ الفراهيدي واحد من أعظم أجدادنا العرب، وهو الذي وضعَ أوزانَ الشِّعر المعروفة بالعروض.

اتّجه التَّلاميذُ بعيونهم إلى المعلّمة، إنّهم يسمعون للمرَّة الأولى أنّ «الفراهيدي» هو عالم عربيٌّ مشهور.

❖❖❖

بعد أيام زارت المعلّمةُ أسرةَ «نور»، وأثنت على اجتهاده وذكائه ومحبّته للغة العربيَّة، وعلى محاولاته الشِّعريَّة، وبينما كانت تتناولُ قطعاً من الحلوى والعصير، أخذت تشرحُ لـ «نور» أنّ عليه أن يتدرَّب على الوزن قليلاً قليلاً، وألا يستعجلَ في معرفة كلّ شيء عنه.

قالت: يا «نور»! دعنا نبدأ الخطوةَ الأولى، فالوزنُ علاماتٌ نقيسُ من خلالها نغمةَ بيت الشِّعر، هناك مثلاً «فعولن» هذه تسمَّى تفعيلة، نستطيع أن نقول مثلاً:

بلادي

ذهبْنا

علينا

سمعتمْ

كلّ هذه العبارات على وزن «فعولن»، ردّد معي.

وأخذت المعلّمة تقول:

بلادي فعولن

ذهبْنا فعولن

وهكذا...، ثمّ قالت لـ «نور»: هل تستطيعُ أن تأتيَ بعبارة تقابلُ كلمة «فعولن»؟

أجاب «نور»: كلام جميل.

ثمّ قال: أحبّك جدّاً.

فرحت المعلّمة كثيراً، وصاحت: يا لك من مبدع جميل! كم أنت مدهش!

لمعت عينا «نور» سروراً بكلمات معلّمته، ولأنّه نجح في الامتحان الأوّل في الوزن الشّعري.

قالت المعلّمة: البحر يا «نور» في الشّعر يتكوّنُ من تكرار عدَّة تفعيلات في بيت الشّعر، في الشَّطر الأوّل،

والشطر الثاني...

جدُّنا الخليل بن أحمد الفراهيدي هو الذي جعل التفعيلة، وبعدها التفعيلات مثل السلّم الموسيقي... ولكن في الشِّعر.

❖❖❖

في الصفِّ طلبت المعلّمةُ من التَّلاميذ أن يأتوا بكلمات تقابلُ نغمةَ «فعولن» بعد أن ردَّدت أمامهم عدَّة عبارات، مثل:

شربنا	**أكلنا**
مشيتم	**تعبتم**
كتابي	**شرابي**
ببابي	**صحابي**



وسرت حركةٌ نشيطة بين التَّلاميذ، وكلٌّ واحد فيهم يبحث عمّا يقوله على وزن «فعولن»، فأخذوا يتسابقون للقول:

تقـدّم

تأخّـر

نجحنا

إذا لم تعودوا

لماذا؟

تعالوا!

ثمَّ راح الجميعُ يكرّر هذه العباراتِ بصوت واحد، ومعَ كلّ عبارة يقولون «فعولن»؛ أي:

تقدّم فعولن

لماذا؟ فعولن

انتهى الدَّرس، لكنَّ التَّلاميذَ واصلوا الأمرَ في ساحة المدرسة، وتحوّل إلى لعبة ممتعة بينهم، إذ يقول

واحدهم للآخر: طعامي

فيردّ آخر عليه: سلامــي

أو تقول إحداهن: سمعنا

فتجيبها زميلتها: أطعنا

وهكذا مرّت لحظاتٌ بهيجةٌ، وعرف الجميع أنَّ هذا الذي ردّدوه كلامٌ موزون على تفعيلة «فعولن» التي وضعها، وسمّاها الفراهيدي.

❖❖❖

فيما بعد، نبّهتهم المعلّمة أنّ بإمكاننا أن نستعينَ بالحركات لنتعلَّمَ الوزن، فنردِّدَ الكلماتِ مع نقرات خفيفة على المقاعد، أو حركات خفيفة بالأيدي أو الأرجل، وبذلك قد نحفظُ النغمَ أكثر، ونصحتهم أن يستعينوا بمعلّمة الموسيقا، لأنَّها تستطيع أن تدرِّبهم، لكن بمصاحبة الآلات الموسيقيَّة.

بالفعل... هذا ما حصل، فحينما طلبوا من معلّمة الموسيقا أن تساعدَهم على حفظ تفعيلة «فعولن» فرحت، بل أضافت:

- بكلّ سرور سأساعدُكم على حفظ هذه التفعيلة، لكن أحبُّ أن أسألَكم هل سمعتم بمن وضعها؟

فصاح الجميع بثقة: الخليل بن أحمد الفراهيدي.

قالت المعلّمة: عظيم... لكن؛ لا تحسبوا أنَّ الفراهيدي وضع وزنَ الشِّعر فقط، بل عليكم أن تعرفوا أنّه كان بارعاً في علم الموسيقا نفسه، ولولا ذلك لم يستطع أن يكتشفَ أوزان الشِّعر، ويضعَ لها القواعدَ المعروفة.

الخليلُ بن أحمد الفراهيدي يا أبنائي عالمٌ عظيم من علماء أمّتنا، ولأنّه عاشَ في «البصرة» فقد اطَّلعَ على الكثير من العلوم.

قالَ أحدُ التّلاميذ: حدثني أبي أنّه زارَ «البصرة»، وهي من المدن العراقيَّة الجميلة، إنَّها في أقصى



الجنوب، وهي الميناءُ العراقيّ الأكبر، وتقع على شطّ العرب في الخليج العربي...

فرحت المعلّمةُ بهذه المعلومةِ، وسألت:

- وهل تعرف أهمَّ ما يميّز «البصرة»؟

ردّ التلميذ: طبعاً... «البصرة» مدينةُ النخيل الأولى في العراق.

هنا أضافت المعلّمة: صحيح... لكن علينا أن نعلمَ أنَّها مدينةُ النفط أيضاً، والأهمُّ من ذلك، أنَّها مدينة مشهورة قديماً بعلمائها، فستعرفون مستقبلاً كم قدّمتْ هذه المدينةُ من أعلام كبار في شتّى العلوم والمعارف، وقد عاشوا جميعاً في «البصرة»، لكنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أهمُّهم، وإذا زرتم «البصرة» ذات يوم فستشاهدون تمثالاً له يتوسّط الساحة الرئيسة فيها، إنّه شاهد على أنّه أعظم رجالها.

❖❖❖

في حصّة موسيقا تاليةٍ أشارت المعلّمةُ إلى «نور» قائلة: كيف حالك يا «نور»؟ أين وصلت مع «فعولن»؟

ابتسم «نور» وأجاب: بخير...، وأشعر يا معلّمتي أنّني أتقنتُ هذه التفعيلةَ إلى حدٍّ كبير.

- عظيم...، وهل كتبتَ قصيدةً فيها هذه التفعيلة؟

- سأفعل...، وانتبهتُ إليها في أمر مهم نسمعه دائماً.

- حسناً في أي شيء؟

- في نشيدنا الوطني!

ظهر فرحٌ غامرٌ على وجه معلّمة الموسيقا، بينما واصل «نور» كلامه:

- لاحظي معي عندما أقول: فعولن فعولُ فعولن فعولْ

مثل: حماةَ الديارِ عليكمْ سلامْ

صاحت المعلّمة بفرح:

صفّقوا لـ «نور» ما أرقَّ إحساسَك!

أنا متأكّدة أنّكَ ستكونُ شاعراً في المستقبل.

صار «نور» يشعرُ أنَّ الفراهيدي صديقُهُ ومعلّمه، فقد استطاع أن يعرفَ عدَّة أشياء عنه.

فهو عربي من «عُمان» من قبيلة «الأزد»، لكنَّه عاشَ في البصرة طوال حياته...، وهذا طبيعيّ، فقد كان العربيُّ يتنقّلُ في بلاده، بحسب الظروف التي تحكم ضروراتِ حياته.

لكنَّ الخليل أظهر ذكاء كبيراً منذُ صغره، وعُرفَ بشجاعته وقوّة شخصيّته وصدقه ومحبّته للتعلُّم، لهذا فقد اعتنى به أهلُهُ، وجعلوه يأخذُ العلمَ من أفضل العلماء في ذلك العصر.

ليس هذا فقط، بل كان عليه أن يذهبَ إلى الصحراء العربيَّة، ليأخذَ العربيَّةَ عن الفصحاء، والذين يحفظون تراثَ العربِ في اللغة والتاريخ والشجاعة، وبهذا نبغَ الخليلُ بسرعة، وبدأ الناس يعرفون أنّهُ سيكون واحداً من الأعلام.

أصدقائي!

مسيرةُ التعلُّم والعلم أعظمُ ما يفعلُه الإنسان في حياته، وهذه المسيرةُ تتطلّبُ منّا أن نكون جديرين بها، فلها أصولٌ وأخلاق تخصُّها، والفراهيدي من أعظم النماذج التي تلخِّصُ لنا أخلاقَ العلم والتعليم.

لقد صبرَ على العلم، واجتهدَ، واحترمَ معلّميه كثيراً، ولم يوفِّر جهداً في تحصيل المعلومة، ولم تقف في وجهه أيَّةُ عقبة، لأنَّها إن وُجدت فسيتغلّبُ عليها بالجهد والصبر.

وقلما عرفَ تاريخُنا شخصاً في تواضع الخليل، مع أنّهُ كانَ في مقدّمة العلماء... وتذكرُ سيرتُهُ أنّه ذاتَ يوم التقى بعلاّمة البصرة الأوّل في اللغة والأدب، واسمُهُ عمرو بن العلاء، وكانَ اللقاءُ للحوار والمناقشة في شتّى علوم اللغة العربيَّة، لكنَّ الخليلَ ظلَّ صامتاً في اللقاء، ولم يتحدّثْ معَ أنَّ لديه ما يتفوّق به، وما يخالف ذلك العالم.

وقد استغربَ كثيرون ما حدث، لأنّهم يعرفون أنَّ الخليلَ صار عالمَ العربيَّة الأوّل، لما يظهر منه من معرفة وإجابة عن كلّ ما يتعلّق باللغة العربيَّة، لكنَّه قال لهم بكلّ تواضع:

«أخشى أن أجرحَ مكانةَ هذا المعلّمِ ولو قليلاً، وهو من هو في علمه ودرجته عندَ الناس، فقد مضى عليه خمسون عاماً، وهو يرأسُ العلمَ في البصرة، فأخافُ أن أهزَّ صورتَهُ عندهم».

أجل...، هذه أخلاق العلماء، فلم يخطر في باله أن يحرجَ معلّمه، أو يظهرَ تفوُّقَهُ عليه، بل حرصَ أن يُظهرَ الاحترامَ الكامل، وألا يتباهى بما لديه من علم.

أخلاق الفراهيدي هذه لم تقتصرْ على التواضع، ولا الاجتهاد، ولا الصبر، بل كانت عندَهُ نزعةً إنسانيَّة كبيرة، جعلته يختلفُ عن أكثر أهل عصره.



فقد أصرَّ الخليلُ بن أحمد الفراهيدي على أن يبقى معلّماً، فيعطي ما عنده لطلاب العلم البارزين بغضِّ النظر عن المقابل الماديّ، لذا لم يتّصل بأحدٍ من الحكّام ليعلِّم أولاده، فيحصل على الكثير من المال والجاه، بل ظلَّ سعيداً في بيته البسيط من الطين وسعف النخيل والقصب، يقرأُ ويكتب، ويستقبل تلاميذَهُ المجتهدين، ولا يتذمّرُ من أيِّ جهد يقدّمه، وفي أيّ وقت.

قد تتساءلون: كيفَ يكونُ الإنسانُ بهذا الزهوِّ، وهذا التواضع؟

وأقول لكم: إنَّ هذا يحدثُ عندَ العالم الذي يضعُ العلمَ في مقدّمة اهتماماته، إضافة إلى ثقته بما لديه من حصيلة واسعة، فالناسُ عادةً يتعالون على الآخرين بسبب نقصٍ في أخلاقهم أو معرفتهم، أمّا الإنسانُ الجيّد فيضعُ أمامَ عينيه هدفاً عظيماً، وليس هناك أعظمُ من العلم، وكلما كانَ الإنسانُ مطّلعاً ولديه ثقافةٌ

واسعة زادَ تواضعُهُ، لأنّ العلمَ بحرٌ لا يدرك شاطئه أحدٌ مهما بلغ، والحياةُ دائماً مليئةٌ بالتجديد والمتغيّرات.

والخليل بن أحمد الفراهيدي حوى كلّ المزايا الجميلة، ويحقّ لنا أن نعدَّهُ مثلاً أعلى من أجدادنا العظام، لهذا ليس غريباً أن يقولَ عنه سفيان الثوري وهو العالم الكبير أيضاً:

«من أحبّ أن ينظرَ إلى رجلٍ خلقُهُ من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل».

❖❖❖

أعطتِ معلّمةُ اللغة العربيَّة قطعةَ إملاء، كانت عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكان على التَّلاميذ أن يكتبوا ما تقولُهُ المعلّمةُ ببطء، مع شكل أواخر الكلمات، والقطعة هي:

«اكتشفَ الخليلُ بن أحمد الفراهيدي خمسةَ عشرَ

بحراً للشِّعر العربي، لأنّه وجد الشِّعر يُنظَمُ على أوزان محدّدة، وسمَّى البحور: الطويل، البسيط، الكامل، المتقارب وهكذا...

وقام تلميذُه الأخفشُ فسمَّى بحراً آخرَ بالمتدارك.

والصحيح أنَّ الخليلَ عرفَ هذا الوزن، لكن، ولأنّ العرب لم يكتبوا فيه، فهو لم يذكره، معَ أنّه كتبَ قطعتين شعريّتين على ذلك الوزن».

بعد أن أنهت المعلّمةُ قطعةَ الإملاء، قالت للتلاميذ: ومن عظمة الخليل أيضاً أنّهُ هو مَنْ وضع النقطَ وعلاماتِ التشكيل في اللغة العربيَّة، وبالشكل الذي نستخدمُهُ الآن، وله كتابٌ ذكره المؤرّخون اسمُهُ «النقط والشكل» لكنَّه لم يصلنا.

أخذَ التَّلاميذُ في المدرسة يهتمون باسم الفراهيدي، وصاروا يسألون آباءهم وأمهاتِهم حيناً، أو باقي المعلّمات، عن هذا العَلَم، وبعضُهم راحَ يبحثُ عن معلومات أكثرَ

من الكتب، أو من خلال الشابكة «الإنترنت» فأخذت معلوماتٌ كثيرةٌ تثيرُ فضولَهم ووجدوا أنَّ للعالم كتباً عديدةً مثل: «العين» و «الإيقاع» و«النغم» و «العروض» و«النقط والشّكل».

في حصّة القراءة، سألَ «نور» معلّمةَ اللغة العربيَّة عن كتب الفراهيدي، وفاجأته المعلّمةُ عندما قالت: زميلُكم يسألُ عن كتب الفراهيدي، لكنَّ سؤالَهُ يبعثُ على الحزن قليلاً!

شحبَ لونُ «نور» واستغربَ التَّلاميذ، فما الذي يجعلُ السؤالَ هنا يبعثُ على الحزن، لكنَّ الأمرَ صار واضحاً بعد أن أكملَتِ المعلّمةُ كلامها:

يجب أن تعرفوا يا أحبّائي أنَّ الخليلَ وُلدَ عام مئة للهجرة، وفي ذلك التاريخ لم ينتشرِ التدوينُ كثيراً، حيث كانَ الناسُ يعتمدون على الحفظ غالباً، أو أنَّ العلماءَ كانوا يكتفون بإلقاء الدروس على طلابهم، إضافة إلى

عوامل الزمن وأحداث التاريخ، كلُّ ذلك أضاعَ أكثر كتب الفراهيدي بشكل خاصّ.

وقفت تلميذةٌ، وسألت: هل ضاعت هذه الكتبُ إلى الأبد؟

قالت المعلّمة: لا ... أبداً!... فقد نقل إلينا تلاميذه أهمَّ وأكثر أقواله وأفكاره، فخذوا مثلاً على ذلك قواعد اللغة العربيَّة، إنَّ أوّلَ كتاب وصلنا هو «الكتاب» لـ «سيبويه»، وهو مشهور جدّاً، لكن لا تنسوا أنَّ أكثرَ ما ورد فيه للخليل، فقد كان سيبويه أقربَ تلاميذه إليه، ولا يكادُ يفارقه، وينقل عنه دائماً، وغالباً ما كان يذكر ذلك في «الكتاب».

شيء مهمٌّ آخرُ عليكم أن تعلموه، هو أنّ أوّلَ معجم في اللغة العربيَّة قد وصلنا هو للخليل، واسمه «العين».

سرت همهمةٌ بينَ التَّلاميذ : العين؟

– هل هو معجم عن العيون؟

- ما علاقةُ العين بالمعاجم؟

لم تستطع المعلّمةُ إلا أن تضحكَ بمرح، وقد سمعَتِ بعض تلك الهمهمة بينَ تلاميذها، فقالت:

- فعلاً اسم العين غريب في البداية، لكن عندما تعرفون سببَ التسمية سينتهي استغرابُكم.

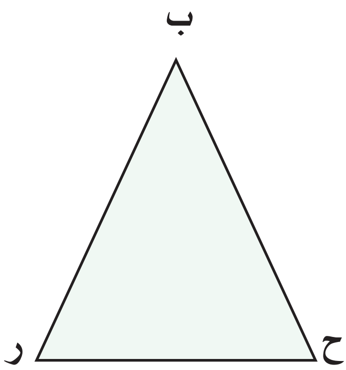
فقد سمَّى الخليلُ معجمَهُ بهذا الاسم، لأنّه يبدأُ بحرف العين، ورتَّبهُ ترتيباً يقوم على الأصوات ومخارجها من فم العربي، وليس بالترتيب «الألف بائي» أو الهجائي الذي تعرفونه، ولهذا سببٌ يتعلَّقُ بأنَّ الخليلَ عالمٌ وفنّانٌ ولغويٌّ ورياضيّ، لذلك كان الصوتُ يهمّهُ كثيراً في الموسيقا والشِّعر واللغة، وهذا ما كان...

لقد وصلَنا هذا المعجم، وهو مشهورٌ ومنشور، والطريفُ فيه أنَّهُ يقومُ على مبدأ التقليب!

وهنا عـادَتِ همهمةُ التَّلاميذ مـن جديد، حيث انتهينا من «العين» وبدأنا بالتقليب، وتابعت المعلّمةُ،

وقد أحسَّتْ بتساؤلات تلاميذها ودهشتهم:

- التقليبُ يا أحبّائي طريقةٌ استخدمها الفراهيدي لأنّه رياضيٌّ ماهر في الحساب وطرقه، وأراد أن يحصيَ الكلماتِ العربيَّةَ في معجمه، فاستخدمَ هذه الطريقةَ، حتّى لا تفلتَ منه كلمةٌ ولو كانت احتمالاً، أو غير موجودة، فخذوا هذا المثلَ على طريقة معجم «العين» فمن كلمة «بحر» مثلاً، نجد معاني من خلال هذا المثلث:



فنستخرج كلمات: (برح، حبر، رحب، حرب، ربح، بحر)؛هذا هو مبدأ التقليب.

ورتّبه هكذا: ع. ح. هـ. خ...... وصولاً إلى ب. م.
ي. و. أ

لم تصلنا كتبُ الفراهيديّ في الموسيقا والعروض مع أنَّ المصادرَ تذكرُ أن إسحق الموصلي، وهو موسيقيّ مشهور، اعتمدَ كثيراً على كتاب للخليل اسمه «الإيقاع والنغم» حصل ذلك في كتاب الموصلي «أصناف النغم وأنواع اللحون».

أمّا كتابه «العروض» فلم يعثرْ عليه أحد، لكنَّ كتبَ العروض (أي أوزان الشِّعر) كلّها تذكرُ صراحةً علمَ الخليل بالتفصيل، وترجع إليه أكثرُ قواعد هذا العلمِ بتفاصيلها.

أمّا شهرةُ الخليل التي يعرفها الجميع فجاءت من وضعه لأوزان الشِّعر العربي التي ارتبطَتْ باسمه، وظللنا إلى الآن نتعلَّمُ طريقتَهُ في ذلك، وعلى الرّغم من



مرور أكثر من ألف ومئتي سنة على ذلك، فقد ظلّت القواعد التي وضعَها الخليلُ هي الأساسُ الذي نبني عليه القصيدةَ العربيَّة.

هل كانَ الخليلُ شاعراً أيضاً؟

أجل... الخليل بن أحمد الفراهيديّ شاعرٌ، وصلَنا العديدُ من مقطوعاته التي جُمعت في ديوان فيه الكثير من المعاني والصور الجميلة.

وشعرهُ يدلُّ على روحه الطيّبة، وشهامته، وحبّه للعلم والبشر والحقيقة، لكن ليس بالضرورة أن يكون شاعراً كبيراً، فالشِّعرُ في الأساس موهبةٌ، يتفاوتُ الناسُ فيها، وليس بالإمكان أن يكونَ الجميعُ شعراء كباراً، لكنَّ الخليلَ لم يرغبْ في الأساس أن يكونَ شاعراً مشهوراً، فلم يعطِ شعرَهُ الكثيرَ من الاهتمام، فقد انصبَّ اهتمامُهُ على المعرفة، ولهذا كان وقتُهُ منصبّاً على علوم كثيرة، برعَ فيها كلِّها.

هناك صفةٌ أساسيَّة للخليل لا بدَّ من ذكرها وهي إباؤه، وابتعاده عن الطموح المادي، فقد زهد بالثروة، وكان يعيشُ عيشةَ الكفاف، بينما كان طلابه يكسبون الأموال الطائلة بالعلم الذي يأخذونه عنه.

وهناك حادثةٌ مشهورةٌ ترويها كتبٌ كثيرة عن الفراهيدي، تدلُّ على تقشُّفه النبيل، وابتعاده عن المغريات.

كان في قمّة شهرته وعلوّ قيمته العلميَّة، وبينما كان يعطي طلابَهُ درساً في بيته المتواضع، فإذا بفارس يصلُ، فهمسَ له أحدُهم:

- هناك رسولٌ من والي الأهواز يطلبُكَ.

فما كان من الخليل إلا أن قال: رحّبوا به، ودعوه ينتظر حتّى أنتهي من درسي.

بعدها خرجَ ليستقبلَ ضيفه، وأجلسَهُ إلى جانبه قائلاً: ما وراءك يا أخي؟

فقال الرسول: أرسلني سيّدي الوالي سليمان بن علي لتؤدّبَ أبناءه.

نظرَ الفراهيدي في وجه الرسول طويلاً، ثمَّ قالَ له: لا أتركُ طلابي هؤلاء، كيفَ يصحُّ أن أتخلّى عنهم؟ إنّهم مثل أولادي.

إلا أنّ الرسول قال بجفاء: لستُ إلا مبعوث الوالي، وقد أمرني بأن أبلغَكَ رسالته، وأريدُ جواباً منك.

وقف الخليل، وقال: انتظرْ قليلاً يا أخي.

ودخلَ إلى غرفة في البيت، ثمّ أخرجَ كلّ ما كان لديه من طعام ذلك اليوم، وما كان إلا خبزاً يابساً مكسّراً...

دُهِشَ الرسولُ من ذلك، لكنَّه قبل أن يتكلَّمَ قال له الفراهيدي: ما دمتُ أجدُ هذا الخبزَ اليابس، فلا حاجة لي بسليمان.

ارتبكَ الرسولُ، وقال بحيرة، وقد امتلأ إعجاباً بهذه النفس الكبيرة: لكن، قل لي: ماذا أبلغُ الوالي عنك؟

هنا كانتِ مشاعرُ الخليل قد وصلت إلى قمّتها، فقال شعراً:

أبلغْ سليمانَ أنّي عنكَ في سَعَةٍ

وفي غنى غيرَ أنّي لستُ ذا مالِ

سخى بنفسي أنّي لا أرى أحدا

يموتُ هُزْلاً ولا يبقى على حالِ

والرزقُ عن قدرٍ لا العجزُ يُنقصُه

ولا يزيدُكَ فيه حَوْلُ محتال

والفقرُ في النفسِ لا في المالِ تعرفُه

ومثلُ ذاك الغنى في النفس لا المالِ

ودّعَ الرسولُ الخليلَ، وهو معجبٌ غاية العجب من عالم اللغة العربيَّة الأوّل، وهو بهذه الحال، وبهذا الإباء والتواضع ومحبّة الناس البسطاء.

❖❖❖

والأخبارُ كثيرةٌ عن وفائه لتلاميذه وأصدقائه، فقد كان مضربَ المثل في ذلك، وكان لا يتعالى على أحد، ولا يزعجُهُ سوى الجاهل المدّعي، وحتّى هذا كان يكتفي بتركه. وذات مرَّة قال عن أحمق سخرَ منه:

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عذرتَني

أو كنتُ أجهلُ ما تقولُ عَذَلتُكا

لكنْ جهلتَ مقالتي فعذلتَني

وعلمتُ أنّكَ مائقٌ فعذرتُكا

وكان للخليل شاعرٌ صديق هو «ابن مناذر»، وبينما هما يمشيان معاً انقطعَ نعلُ «ابن مناذر»، وإذا بالخليل ينزعُ نعلَهُ أيضاً، ويتابع السير معه، فعجب «ابن مناذر» وقال: مالك فعلتَ ذلك؟

فأجابه: أحببتُ أن أواسيكَ في الحفاء.

وكان «سيبويه» من أحبّ تلاميذ الخليل إليه، لشدَّةِ

ذكائه وأمانته وفطانته في الدَّرس والبحث والسؤال، لهذا كان الخليلُ يستقبلُهُ ببشاشة خاصة قائلاً: أهلاً بزائر لا يُملّ!

وعندما ألّفَ سيبويه كتابه «الكتاب» ردَّ الفضلَ إلى معلّمه الأكبر، وكان يذكرهُ بالاسم أو بالإشارة.

❖❖❖

والعجيبُ أنَّ الخليلَ يعترفُ لأصحابه بالفضل، ولا يخجلُ أن يتعلَّمَ من أحد، ولو كان طفلاً، وتروي الأخبارُ أنّ «النظَّام» جاءَ معَ أبيه إلى الفراهيدي، و«النظَّام» هو العبقريُّ الكبير أيضاً، لكن عند تلك الزيارة كانَ طفلاً في بادئ الذكاء، لهذا أرادَ أبوه أن يستمعَ إلى رأي الخليل بابنه، لذا طلب أن يمتحنَهُ ببعض الأسئلة.

نظر الخليل بمودّة وعطف إلى النظَّام الطفل، وقال وفي يده قدحُ زجاج:

– يا بنيّ صفْ لي هذهِ الزجاجةَ!

قال الطفل: أبمدحٍ أم بذمٍّ يا عمَّاه؟

قال الخليل: بمدح.

قال النظَّام: تُريكَ القَذى[1]، ولا تقبل الأذى، ولا تسترُ ما وراءَها.

فقال الخليل: والآن أريدُ منك أن تذمَّها.

فأجاب النظَّام: سريعٌ كسرُها، بطيءٌ جَبرُها.

ثمَّ أشارَ الخليل إلى نخلة، وقال: صفْ لي هذه النخلةَ يا بني.

فقال النظَّام: أبمدحٍ أم بذمٍّ؟

قال الخليل: بمدح.

فقال النظَّام: هي حلوٌ مجتناها، باسقٌ[2] منتهاها، ناضرٌ[3] أعلاها.

ثمَّ طلبَ منه الخليل: والآن يا بني ذمَّها.

١- القذى: ما يعلق كالغبار.

٢- باسق: طويل.

٣- ناضر: أخضر، طري.



فأجاب النظَّام: هي صعبةُ المرتقى[٤]، بعيدةُ المجتنى، محفوفٌ بها الأذى.

تهلّلتْ ملامحُ الفراهيدي فرحاً، ونظرَ في وجه أبيه بسعادة، ثمَّ التفتَ إلى النظَّام الطفل، وربتَ على كتفه، وقال له: يا بني... نحنُ إلى التعلُّم منك أحوج.

بعضُ الناس لا يعترفون بالفضل حتّى للعلماء، بينما الخليل يقولُ للطفل إنَّهُ جديرٌ بأن يتعلَّم منه، على الرغم ممّا للفراهيدي من سمعة وشهرة وتفوُّق. يا له من إنسان نادر!

❖❖❖

الخليل والراهب:

قال الخليل: اجتزتُ في بعض أسفاري براهب في صومعة، فدققتُ عليه، والمساءُ قد حلّ، وخفت من الصحراء، وسألته أن يدخلَني. فقال: من أنت؟

٤- المرتقى: الصعود.

فقلت: أنا الخليل بن أحمد الفراهيدي.

فقال: أنت الذي يزعمُ الناسُ أنّكَ عبقريٌّ، وعالمٌ بعلم العرب وأخبارها؟

فقلت: كذا يقولون، ولستُ كذلك.

قال: إن أجبتني عن ثلاث مسائلَ جواباً مقنعاً، فتحتُ لك وأحسنتُ ضيافتك، وإلا لن أفتحَ لك.

فقلتُ: وما هي؟

قال: ألسنا نستدلُّ على الشاهد بالغائب؟

قلت: بلى.

قال: فأنت تقول: إنَّ اللّهَ ليس بجسم، ولم نرَ له مثلاً، فبأيِّ شيء أثبتَّه؟ وأنت تزعمُ أنَّ الناسَ في الجنة يأكلون ويشربون، ولا يتغوّطون، وأنتَ لم ترَ آكلاً شارباً إلا متغوِّطاً، وأنت تقولُ: إنَّ نعيمَ أهل الجنة لا ينقضي، وأنت لم ترَ شيئاً إلا منقضياً.

فقلت له: بالشاهد الحاضر استدللت على ذلك

كلِّه. أمّا الله تعالى، فإنّي استدللتُ عليه بالأفعال الدالّة عليه، أنّهُ لا مثلَ له، وفي الشاهد مثلُ ذلك، الروحُ التي فيك، وفي كلّ حيوان، نعلمُ أنّه يحسٌّ بها تحتَ كلّ شعرة منّا، ونحن لا ندري أين هي، ولا كيف هي ولا ما صفتها، ولا جوهرها، ثم نرى الإنسان من الناس يموتُ إذا خرجتْ، ولا يحسٌّ بشيء، وإنّما استدللتُ عليها بأفعالها، وبحركاتها، وتصرفنا، بكونها فينا. وأما قولك: إنَّ أهل الجنة لا يتغوّطون مع الأكل، فالشاهدُ لا يمنعُ ذلك، ألا تعلم أنَّ الجنينَ يغتذي في بطن أمه، ولا يتغوّط، وأمّا قولك: إنّ نعيمَ أهل الجنة لا ينقضي مع أنّ أولَهُ موجودٌ، فإنّا نجدُ أنفسنا نبتدئ الحسابَ بالواحد، ثمَّ لو أردنا أن لا ينقضي إلى ما لا نهاية له، لم نزل نكرّرهُ، وأعداده، وتضعيفه إلى ما لا انقضاء له.

ففتحَ الراهبُ لي الباب، وأحسنَ ضيافتي.

ومن روائع أخلاقه أن يكونَ له أصدقاء من مختلف الديانات والقوميّات، فلم تكن تمنعه عقيدةٌ أو دين أو طائفة من الصداقة القائمة على المحبّة واحترام الرأي والإنسان، فمجلسُ الخليل يضمُّ أناساً من كلّ هؤلاء، أليس هو القائل: «الدنيا مختلفاتٌ تأتلف»؟!

ولأنّه مقدّر كثيراً، وعالي المكانة كانَ الناسُ يقولون له: «إن زرتنا فبفضلك، وإن زرناك فلفضلك، فلك الفضلُ زائراً ومزوراً».

❖❖❖

فرح «نور»، وقد أرسل قصيدةً إلى مجلة «أسامة»!

وكانت أوّلَ قصيدة موزونة له، لكنَّ وزنَها سهلٌ جدّاً وهو:

فعولن فعولن فعولن فعولن

وراح «نور» يقرؤها لأصدقائه، وعنوانُها «الحديقة»:

زهـــورُ الحديقهْ　　تظـلّ الصديقــهْ
تفـــوحُ عطــورا　　ولونـــاً منـــيرا
وفيهـا الطّيـــورُ　　بحــبّ تطيـــرُ
معَ الصحب أذهبْ　　نذاكـــرُ نـلعبْ
يطـيبُ لقـــائي　　مــع الأصـدقــاءِ

ولم ينسَ أن يخبرَهم أنّ الخليلَ بن أحمد الفراهيدي صار واحداً من أصدقائه، دائماً يسأل عنه وعن أخباره، ويعتزُّ أن يكونَ له جدٌّ مثله.

أجل هو صديق، مع أنّه توفّي عام ١٧٥ هجريَّة، لكنَّه يظلُّ يشعرُ أنّه يعرفُهُ جيّداً، وفي كلّ يوم يسمع شيئاً جديداً عنه، وبأنّه معلّمُه الأوّل في موسيقا الشِّعر.

لم يمت الفراهيدي ميتة عاديَّة، فقد شاءتِ الأقدارُ أن يكونَ عظيماً حتّى في سبب موته، حيث ارتبط ذلك السببُ بالعلم!

تعلمون أنَّ الخليلَ كانَ متنوّعَ المواهب، ومن ضمن ذلك براعتُهُ في علم الحساب، وقد وضعَ في ذهنه أن يكتشفَ طريقةً سهلةً للحساب، تجعلُ الناس العاديّين يستخدمونها بسهولة في أمورهم اليوميَّة.

وراحَ يحصرُ ذهنَهُ في ذلك، وهو العالمُ المجدّ الذي يعطي العلمَ كلَّ اهتمامه، وكان ساهياً عمّا حولَهُ في مسجد البصرة، يُعمِلُ عقلَهُ في تلكَ الطريقة الحسابيَّة، وبينما هو يسيرُ بلا انتباه لما حولَهُ خبطَ رأسَهُ بعمود من أعمدة المسجد، فسقط أرضاً ينزفُ، وهو عجوزٌ في الخامسة والسبعين من عمره.

فهوى الفراهيدي... هوى عمودُ العلم، ومفتاح العلوم، وأذكى العرب كما قالوا عنه، لكن بعد أن رفعَ أعمدةً للنّور والمعرفة.



من كلام الخليل:

لا يعلمُ الإنسانُ خطأَ معلّمٍ حتّى يجالسَ غيره.

❖❖❖

لا شيءَ أشبه بالمظلوم من الحاسد.

❖❖❖

الناسُ في سجن ما لم يُمازَحوا.

❖❖❖

الجودُ بذلُ الموجود.

❖❖❖

الدنيا أمد، والآخرة أبد.

❖❖❖

الزهد ألا تطلبَ المفقودَ حتّى تفقدَ الموجود.

❖❖❖

الشُّعراءُ أمراءُ الكلام.

❖❖❖

الناسُ أربعةٌ، رجلٌ يدري ويدري أنّه يدري، فذاك عالمٌ فخذوا عنه، ورجلٌ يدري وهو لا يدري بأنّه يدري، فذاك ناسٍ فذكّروه، ورجلٌ لا يدري وهو يدري أنّه لا يدري، فذاك طالبٌ فعلّموه، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنّه لا يدري، فذاك أحمقٌ فارفضوه.

❖❖❖

التواني إضاعةٌ، والحزمُ بضاعةٌ، والإنصافُ راحةٌ، واللِّجاجُ وقاحة.

❖❖❖

زلّةُ العاقلِ يُضربُ بها الطبلُ، وزلّةُ الجاهل تَخْفى في الجهل.

❖❖❖

الرجلُ بلا صديقٍ كاليمين بلا شمال.

❖❖❖

لا تصلُ إلى ما تحتاجُ إليه إلا بالوقوف على ما لا تحتاجُ إليه.

❖❖❖

إن سَمَّ الخيّاطِ لا يضيقُ على متصادقَين، والدنيا لا تسعُ متباغضَين.

❖❖❖

إذا لقيت عالماً أخذت منه، وأعطيته.

❖❖❖

الدنيا مختلفاتٌ تأتلف، ومؤتلفاتٌ تختلف.

❖❖❖

الأيّام ثلاثةٌ، معهودٌ ومشهودٌ وموعود، فالمعهودُ أمس، والمشهودُ اليوم، والموعودُ غد.

❖❖❖

إنَّ تحريقَ الثوب أهونُ من نسجه.

❖❖❖

من شعر الفراهيدي:

إذا ضيَّقتَ أمراً زادَ ضيقاً
وإنهوَّنتَصعبَالأمرِهانا
فلا تجزعْ لأمرٍ ضاقَ شيئاً
فكم صعبٍ تشدّدَ ثم لانا!

❖❖❖

ومـــا شيءٌ أحبّ إلى لئيــمٍ
إذا سبَّ الكرامَ من الجوابِ
مُتاركـــةُ اللئيم بلا جــوابٍ
أشدُّ على اللئيم من السُّبابِ

❖❖❖

وما بكثيرٍ ألفُ خِلٍّ[٥] لعاقلٍ
وإنَّ عدوّاً واحــداً لكثيرُ

٥- الخِلُّ: الصديق.



ما اتسعتْ أرضٌ إذا كانَ من

تبغضُ في شيءٍ من الأرضِ

❖❖❖

يا جنةً فاقتِ الجنــــانَ فما

تبــلغُها قيمـــةٌ ولا ثمـــنُ

ألِفْتُها[6] فاتخذتُها وطنـاً

إنَّ فـــؤادي لأهلها وطــنُ

❖❖❖

العلمُ يذكي[7] عقولاً حينَ يصحبُها

وقد يزيِّدها طولُ التجاريبِ

وذو التـأدُّبِ في الجُهَّـالِ مغتربٌ

يرى ويسمعُ ألوانَ الأعاجيبِ

❖❖❖

٦- ألفتها : تعودّت عليها وأحببتها .

٧- يذكي: يجعلها صحيحة متفوّقة.

يعيش الفتى بالعقلِ في النّاس إنّه
على العقل يجري علمُه وتجاربُهْ
ويَزري[8] به في الناسِ قلَّةُ عقـلـه
وإنْ كرُمَتْ أعراقُه ومَناسبُهْ

❖❖❖

إن لم يكنْ لكَ لحمٌ كفـاكَ خلٌّ وزيتُ
أو لم يـكنْ ذا وهذا فكســرةٌ وبُـيَـيِّتُ[9]
هذا عفـافٌ وأمـنٌ فـلا يغرَّك ليتُ

❖❖❖

يعيشُ المرءُ في أملٍ يـردّدهُ إلـى الأبدِ
يؤمِّلُ ما يؤمِّلُ مـن صنوفِ المالِ والولدِ

❖❖❖

٨- يزري: يعيب ويشوّه.
٩- بييت: تصغير بيت؛ أي بيت صغير.

أنستُ بوحدتي ولزمتُ بيتي
فطابَ الأنسُ لي ونما السرورُ

❖❖❖

وعاجزُ الرأيِ مضياعٌ لفرصتِهِ
حتّى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القدرا

❖❖❖

ليس بعلم ما حوى القِمَطْرُ[10]
ما العلمُ إلا ما حواهُ الصدرُ

❖❖❖

إذا كنت لا تدري ولم تكُ كالذي
يشاورُ من يدري فكيف إذاً تدري؟

❖❖❖

اعملْ بعلمي، وإن قصَّرتُ في عملي
ينفعْكَ علمي، ولا يضررْكَ تقصيري

١٠- القمطر: صندوق الكتب.

وانظرْ لنفسِكَ فيما أنتَ فاعلُهُ

من الأمور، وشمّرْ فوقَ تشميري

❖❖❖

افخــرْ وكاثِــر بالقريـ

ـحــةِ[11] إنَّها فخــرُ المُكــاثرْ

واعـــلم بأنَّ العـــلمَ ما

أوعيتَ[12] في صحف الضمائرْ

❖❖❖

كأنَّكَ كنتَ قد خامرتَ[13] قلبي

فجئتَ بما شفيتُ به الغليلا[14]

رأيتُ براعةَ الإيجاز[15] أشفى

فصارَ كثيرُ غيرِك لي قليلا

١١- القريحة: القدرة على الإبداع.

١٢- أوعيت: ملأت.

١٣- خامرتَ: خالطت.

١٤- الغليل: العطش.

١٥- الإيجاز: الاختصار.

بيان الصفدي:

- ولد عام ١٩٥٦م/السويداء/ سورية.
- شاعر وقاص ومسرحي للأطفال.
- عمل في دار ثقافة الأطفال /بغداد/ محرراً ثقافياً منذ عام ١٩٧٧ حتى ١٩٨٢م.
- عمل رئيساً لتحرير مجلة الأطفال «أسامة» (٢٠٠٣ - ٢٠٠٦م) - وزارة الثقافة/دمشق.
- يعمل الآن خبيراً في الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق.
- شارك في العديد من الندوات والمهرجانات ولجان التحكيم في مسابقات سورية وعربية للكبار وللأطفال.
- دخلت أعماله في المقررات المدرسية في بلدان عربية عديدة.
- لحّن له للأطفال نجم عبد الله، وعبد الحليم السيد، وعبد الحسين السماوي، وحسين قدوري، وحسين نازك، وسهيل عرفة، ونصير حيدر، وعلي رامز محمد.

من أعماله للأطفال:

١- حكايات جميلة: ١٠ أجزاء - دار الآداب - بيروت - ١٩٧٨م.

٢- لوحات شعر: دار ثقافة الأطفال - بغداد ١٩٧٩م.

٣- غنوا مع دارين: شعر (بالاشتراك مع سليمان العيسى) دار إيبلا- دمشق - ١٩٨٩م.

٤-الأغاني: شعر - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ١٩٨٢م.

٥- التفكير بالمقلوب: قصص - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ١٩٨٤م.

٦-مغامرات مرجان ومرجانة - شعر - دار الحدائق -بيروت - ٢٠٠٣م.

٧- الكشكول: مختارات شعرية ونثرية - دار السائح - طرابلس -لبنان ٢٠٠٥م.

٨- قصص للأطفال: هدية «العربي الصغير» الكويت - عدد تموز ٢٠٠٩م.

٩- ذات نهار: شعر - دار الحدائق - بيروت ٢٠٠٩م.

١٠- نسرين تنسى دائماً: قصتان - دار البحيرة - رام اللّه - فلسطين ٢٠١٤م.

١١- العراق الجميل: شعر - دار ثقافة الأطفال - بغداد ٢٠١٤م.

١٢- أخضر أصفر: شعر - دار البنان - بيروت - ٢٠١٥م.

١٣- وطني قلبي: شعر- وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠١٥م.

١٤- ديوان الطفل العربي: /٣/ أجزاء - دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة (٢٠١٥ - ٢٠١٦م).